مـــــــــاذا يـعـنـي الـرجـــــوعُ إلـيـك؟

. نصـــر الدين اللواتي .

ماذا يعني الرجوعُ إليكِ في هذا الهزيع الأخير من كلّ شيء؟

ماذا يعني الرجوعُ إليكِ الآن فجأةً، مُفسدةً كلَّ هذا اليقين المزهوَ بأنَ هنالك مكانًا لغيابك؟

وماذا يعني أن تستحيلي اليوم ممكنةً أكثرَ من أيِّ وقت مضى، بعد أن استحلْتِ عصيةً كلَّ ذلك الوقت الذي مضى، أنتِ التي نجـــحتِ في أن تكوني توازُنَ الدوافع والموانع والانتظارات والخيبات والأسئلة القاسية والأجوبة المربكة، أنتِ المؤتلف والمختلف وسيدة المرتجى؟

◆ ◆ ◆

من أين جاء كلُّ هذا الخواء؟ الأفكارُ إلى تماثل مريب، والكيانُ الحرُّ إلى فناء استعراضيّ، والعالمُ الذي عَبَر إلى القرن الجديد بفتوحات الأخلاقيات الإحيائية يُعْلن تسويةَ وجودنا بحقّ الأقليات في الإحصاءات الديموغرافية والتنوُّع الثقافيّ. لا معنى ملموسًا، في الأثناء، لخطاب الحوار الحضاريّ، عدا ذلك المعنى الذي يمتدّ سطرًا مُستقيمًا من حديقة البيت الأبيض إلى ساحة الفردوس في بغداد.

غيرَ بعيد، الوضعيون المتحفِّزُون لأية معركة في فراغ الفكر الإنسانيّ المعولم يضيفون إلى فتوحات العالم الجديد اتّهامًا أصيلاً للعرب بعدم الفاعلية. وكسَقْط إخباريّ في تقارير الحرب الكونية السيّارة ضدّ الإرهاب، نَحْتشد في هويّتنا مُلْقين بأنفسنا إلى كلّ هذا السقوط المرير.

هكذا ترينَ، حقيقةً، أنَ الخَطْبَ هذه المرّة عظيم، وأنَ في المعنى العامّ للسقوط الذي نعيشُ شيئًا من الاستثناء لكوننا لا يمكن أن نخطئ طعمَ النهاية هذه المرةَ. وهكذا ترين أنّ الخطْب في هذه اللحظة من ترتيب الشأن الحضاريّ العربيّ تحت السماء العربية الواطئة أعظمُ ممّا استعدُّوا به في السابق: «القمة الطارئة، جبهة الصمود والتصدّي، لجنة المتابعة، المؤتمر الاستثنائيّ، قوانين الطوارئ المستديمة، شرذمة ضالة معكِّرة للصفو العامّ، وللّه زمان يا سلاحي، التكامل العربيّ، المقابل العمليّ للحرب ضدّ الإرهاب...»

هل رأيتِ كيف أنّ الخطْب يبدو أعظمَ هذه المرّة؟

◆ ◆ ◆

أين أنتِ الآن؟ ربّما كنتِ على ذُرى موشّح، ترعين قطعان الأيائل المتراقصة. ألا ترفعين ناظريْك قليلاً؟

◆ ◆ ◆

بِمَ نتوسَّلُ اليوم الإقامةَ في العالم، نحن سليلي عصر التدوين، مُطلّين على الهوّة السحيقة؟

سؤالٌ طريف ظريف سرعان ما ينبري للإجابة عنه تراثٌ ثقيلٌ من الأسلوبية التبريرية الملتفتة إلى الوجهة الخطإ من الشاغل العربيّ الإسلاميّ. وعوضًا عن المدوَّنة العقلانية التقدُّمية المرتجاة، يَفْجأنا حنانٌ تراثيٌّ لا يردُّ يدَ لامس: تراث جاهز ما انفكّ يشيرُ إلى نفسه بأنّه أصلُ كلّ شيء؛ يَقْطع المسافةَ من اليمين إلى اليسار دون أن يستنفرَ أيَّ خلل في المواقف؛ تراثٌ مُسوَّق في معارك التنوير الخاطئة وفي حوارات النهضة المعطبة؛ منتقًى ليوفِّر فقط خبرات إضافيةً لأدعياء الإطلاقية الناطقين باسم السماوات حينًا وباسم الفنّانات المعتزلات أحيانًا، وليوفِّرَ خبرات إضافيةً لمثقفين مُرتَجلين في مدن الصقيع الشماليّ مختصّين في اتّهام الجميع بـ«الاستئصالية والتعصُّب» كجدول أعمالٍ مفتوحٍ لرابطاتهم ومنتدياتهم.

دون بدائل نوعية، نُصدِّرُ اليومَ إلى هذا الراهن الضيق مدوَّنةً فسيحةً من المحاججة والمجادلة المهدورة في إيديولوجيا التكفير. وسيكون على الانهماك العربيّ الإسلاميّ في ملاحقة حوار الحضارات أن يسدَّ الفجوة... هذا إذا ما وجدنا مَنْ نحاوره في هذا العالم، كائنات لغويةً أخرى مثلَنا، مكسورةَ الصوت ومجروحةَ الكبرياء.

في الرجوع الكبير إلى البدايات، في الذهاب الكبير إلى مهرجان اللغة، شيء من الصوفية المنفلتة. في هذا الرجوع المربك، واقفًا على الحافة، كيف يستقيم أن أُعلن كلَّ هذا الصمود، ثم أنهمرَ بغزارةٍ مريبةٍ كلَّما تسلّقتُ نخيلَ عينيك؟

◆ ◆ ◆

يُلقي أزيزُ الطائرات بلونٍ رماديٍّ مالح على صدر بغداد. يَسْكب أطيافًا متسامقةً من السواد. يأخذ ملمحَ مخالب. يدا رامسفلْد تحلّقان في الفضاء، قبل أن تنكسرَ الأصواتُ وتتمزَّقَ الأفئدةُ ويعمَّ الخواءُ. إنّه الخواء! لقد استحالت سنواتٌ من الأسئلة المتورّمة، ومناجاة الأمّهات الوحيدات، وتعبِ الأيباتشي في افتراس الرضَّع، ومناظراتِ الحرب الإعلامية... كلُّ شيء استحال خواءً. لا مصير ونهاية ولا بداية. إنّه الخواء. في الأثناء، مَن استطاع اختار لنفسه كرسيَّ محافظ.

فقط نُجاهدُ لكي لا نُطلَّ على أصابع المارينز المتّسخة، تسيل منها شكوكُ جبرا، وهواجسُ غائب طعمة فرمان، وفراقية بن زريق... نغالب كي لا نُطلَّ من النَّحنُ على الما تبقّى.

ورغم أنّ الأمر يتعلّق دائمًا بتجربة ثقافية ملموسة لشعبٍ حقيقيٍّ ملموس، فلا أحد يسأل كيف أصبح الموتُ طريقةَ الإقامة ـ الأكثر دقةً ـ في الحياة. لا أحد يهمّه.

◆ ◆ ◆

أين كنتِ صبيحةَ ذلك اليوم؟

حين سقطت الأبراجُ، وتهاوت الطائراتُ، ولاحق الدخانُ المفترسُ الراكضين في شوارع مَنْهاتن، كان العالمُ يَشْهد تمرينًا سيميائيًا جديداً استُخدمت معه تعابيرُ من نوع «في عقر دارهم» و«سقوط الكبرياء.»

ومع أنّ الصحراء الأفغانية وَفَّرتْ خطوطَ عرضٍ جديدةً في العَلَم المرفرف على الكابيتول، فإنَّها لم تَمحُ بالإتقانِ المرجوِّ مشهدَ «الطائرات المجاهدة» في سماء مَنْهاتن، وكان على الـ ب ٥٢ أن تسدَّ الفجوةَ بين الاستحقاقات الأميركية الخالصة وأنثروبولوجيا الكبرياء العراقيّ. وهكذا، تمرينٌ بتمرين، بروفةٌ جماعية على سيمياء الفناء الإنسانيّ لا بدَّ من تجربتها على الآخرين. وفي الأثناء لا حاجة بأحد إلى متحف بغداد!

وحدَه الإعلامُ الأميركيّ لن يحار في تفسير الانشغال الجيو ـ نفسي الجديد للأميركيين في قلب العراق. لقد كان تحريراً وكفى.

◆ ◆ ◆

أصبح تاريخُ ١١ سبتمبر في الغالب الأعمّ يُذكر دون الإشارة إلى السنة. ربّما لا أحد يَذْكر أنّ ذلك كان سنة ألفين وواحد. البعض لا يُدرك، وكأنّها تحوّلتْ إلى لحظة مستمرة دائرية يُتفادى نسبتُها إلى أية سنة في صحراء التاريخ الإنسانيّ. وعلى كلٍّ، فهو مجرّدُ يوم، سرعان ما أُدرج في الرزنامة الوطنية للفرد الأميركيّ. يوم واحد كلَّ سنة للتمعُّن في إشكالٍ لغويٍّ شائك: كيف شَطَبتْ مفردةٌ واحدةٌ، هي الإرهاب، أرواحَ ثلاثة آلاف أميركيّ؟

يومٌ أميركيٌّ واحد للتمعُّن. أما باقي أيام العالم فلتدريبِ الآخرين، شعوبًا وأنظمةً، على شطب كياناتهم دون أية مفردات.

◆ ◆ ◆

لم أستطع أن أفهم السبيلَ الأمثلَ الذي تخيَّرهُ طالب الأحمد، العراقيُّ الجميلُ السّاكنُ أعالي الغربة، ليستأنس بأنياب الألم تَطْرق قلبَه بعيداً عن سمائه الأولى، سماءِ بغداد. ألم بارد وحقيقيّ، كأنّه صرخة في الظّلام، أو كأنّه صهيلُ الرّيح في شارع الأميرات.

وها بعد سنين عشر يصبح هذا الألمُ العراقيُّ الأمين آخرَ ما تبقّى لديه. ربما التبستْ أمامه المعاني والملامحُ والبيانات. ربّما التبسَ لديه حريقُ الضياعِ بصقيع الانكسار. ربّما بعينيه شاهَدَ في الشاشات الراكضين الغامضين في كلّ اتّجاه، هاربين بأصوات أهله في الكرخ وسلالِ شوقٍ عتيق كان خبّأها في الرُّصاف. فيهم مَنْ فرّ، مزهواً أمام العدسة، بدفاتر مدرسية، ومَن استطاع دَسَّ في جيبه أصابعَ حمورابي وحبالَ غسيل. أحدُهم لم يستطع جرَّ الرصيف بعيدًا.

أمّا ركامُ الحطام الدامي الموزَّعُ من بوّابات أمّ قصر حتى هضاب الموصل فلم يجد أحدًا ليَكْنسه. وحده طالب الأحمد يَقْبض بكفه على آخر جمرةٍ قُرمطية، مكسوراً أمام لحظةٍ تلفزيونيةٍ ابتلعتْ كلَّ شيء... خلا أقدام التمثال المزروعة في ساحة الفردوس.

◆ ◆ ◆

أنا أفتقدُكَ الآن، وأفتقدُ «طالب» كثيرًا. ولا أدري تحديداً إذا كان هو، حيث هو، مقتنعًا حقًا بأنّ بقايا قدميْن مزروعتيْن أمام فندق فلسطين أمرٌ يستحقُّ هذا الثمن: الاحتلال.

◆ ◆ ◆

أين أنت الآن؟ لقد ساحت لديَّ ذاكرةُ الحواس. تداخَلَ ملْمسُ يديْكِ بحرير صوتك. أنتِ التي تمسكين بأطراف اللغة. أعود إليك اليومَ بطعمٍ غريب. هنالك شيء ما انكسر إلى الأبد. كلُّ نشيد، كلُّ سطر في قصيد، كلُّ سؤالٍ، كلُّ ارتباك، كلُّ أمنية مختلسة، ضاع منها شيء ما، إلى الأبد. كلُّ حنين، كلُّ لهفة، كلُّ دهشة، تناثر منها شيء ما، إلى الأبد.

لماذا كلّما تلمّستُ إجابةً في كلّ هذا التعب المنبسط كصحراء، أجدني أعودُ إليك، إلى شيء في عينيكِ يَشْرح العالَم في تسامٍ غريب؟

أعودُ إليكِ بلا أحد، بلا آمالٍ واضحة ولا أحزانٍ واضحة.

❖ ❖ ❖

من عبد القادر الحسيني، إلى رقم في سجلاّت وكالة الغوث، إلى الرصاصة الأولى لثورةٍ مزهوّةٍ بأنّها الشرط لتحديد الوجهة نحو الأمـة، إلى اللاأُمّـة، إلى القنيطرة، إلى بيـروت ١٩٨٢، إلى الحجارة التصحيحية، إلى صحراء المصير، إلى حديقة البيت الأبيض وسلام الشجعان، إلى توازي المسارات وانفلاتها، إلى مطار غزّة، إلى التهافت المنسجم، إلى التكنولوجيا تحْصد شعب الجبّارين، إلى تمارين توماس فريدمان، إلى اليوبيل الذهبيّ لآرييل شارون، إلى جينيالوجيا الإرهاب، إلى «خريطة الطريق» تجْرف مديحَ الظلّ العالي... مَنْ بعدُ يهمّه؟

المثير هنا أنّه ما من أحد يفسّر السّعيَ الأداتيَّ المتقنَ للضمير العربيّ إلى تحويل الجرح العراقيّ والجرح الفلسطينيّ مربّعاتٍ نوعيّة في خيارات المصير الجغرافيّ ـ السياسيّ لمنطقة الشرق الأوسط. مجرّد مربّعاتٍ قابلةٍ للتصفيف والتلوين والبعثرة أمام أية فضائية.

❖ ❖ ❖

أما أنت، فكأنّك أمامي تقتلين الزمنَ في إيماءة حكيمة مُرتّبة، تستمعين بانتباهك الاستثنائيّ المتحفّز. يا إلهي، كلّ هذا الانتباه الماكر!

❖ ❖ ❖

لم يَصفْ أحدٌ الأسوارَ والأبراجَ والآثارَ العائمةَ على سطح التاريخ الوسيط، بمثل ما فعل الشعراءُ، مؤرِّخو الأشجان العابرة للقرون.

أنتِ نفسكِ، ألم تُنظّري للتفاصيل، لكونها الصميمَ من الحياة؟

لم يتبيَّنْ أحدٌ كيف أنّ هذا العمل الشاقّ، البناءَ والإنشاءَ، كان تأريخًا موازيًا للحبّ!

وما هي الأمكنة إنْ لم تكن شروطًا تأسيسيةً للذاكرة ـ يوتوبيا المكان التي نعيش بها؟ في الواقع أُسِرُّ إليكِ بأنّ هذا آخرُ وأقصى ما اهتديتُ إليه عندما مررتُ بنهج النّخيل. أعلمُ أنّ هذه البدهية غيرُ قادرةٍ على خلخلة قلبكِ الصامد، ولستُ في ترف الاعتراض. ولكنْ أنصتي قليلاً إلى تلك النوافذ المنقوشة في أعالي أسوار الحمّامات. من أين لك، بكلّ هذا اليقين، بأنّها ليست صوتًا منقوشًا في شجن معماريّ أصيل؟

أستطيع أن أدّعي اليوم، وأنا أسألُني عن سرّ هذا الرجوع إليكِ، أنّ تلك النوافذ مفتوحةٌ على قلبي تمامًا، معرّاةٌ من أية زوائد، مكسوّةٌ بصدى بعيد: «أُحبّكِ...»

❖ ❖ ❖

منذ سنوات عديدة كان لي هاجس نوعيّ: أن أكتب إليكِ رسائلَ من بلاد بعيدة نائية: من أصفهان... من اسطنبول... من ستوكهولم... من تيرانا... من مدريد... من الجزائر... من الرباط...

كان هذا الهاجسُ حديقتي السرّية: أن أكتُبني على نحوٍ يليق بغربةٍ أصيلة، أصدقَ نكهةً وقسوةً ومرارةً من تلك الغربة التي نشير إليها بتودُّد ونحن مزروعون في كساد أماكننا. أما لماذا كنت تستلقين في هذا الهاجس المكانيّ الغريب فلا أدري. ربما لأنّك كنت تتقنين دور التلقي، لأنّك ـ ماثلةً في نشيد ـ كنت تجيدين التحوُّلَ كلَّ مرّة إلى خلاصة للوجهات. كنت تُجيدين دائمًا التمثُّل بشيءٍ ما غامضٍ عصيٍّ على الفهم، رغم الإيمان العميق بأنّ هذا الشيء الغامض نعيش من أجله.

❖ ❖ ❖

مَنْ قتل، إذن، ليلى الحايك؟

لم يجزمْ غسان كنفاني في مدوّنته المكتوبة ـ والمنشورة نكايةً في العقل العربيّ المرتدّ ـ سوى بمصيرية التصدّي للنوازع العدمية والخيارات المنهزمة، منتصراً إلى عقلانية ناظمة لمختلف أوجه الفعل الإنسانيّ والعربيّ النضاليّ.

ولأنّ غسان كنفاني شراعٌ استثنائيٌّ في محيطات من التماثل والتشابه والتكلّس، فقد كان مزهوًا حتى بالانقلاب على نفسه، مطوِّحًا بهذه العقلانية الملساء الناعمة عند أقدام غادة السمّان. وإنّي، أنا الباحثَ عن مغزى الرجوع إليكِ اليوم، لأنْحني أمام انكسارات غسان كنفاني وهو يشير إلى نفسه بأنّه تعيس ينتظر غادة كما ينتظر وطنًا ضائعًا. غسان، الذي منحتْه قامةُ النّضال الفارعةُ سمةَ نبيّ، عاش حتى آخر لحظة مكسورًا أمام حيرة أنثوية عاشقةٍ بعثرتْها غادة في كيانه؛ حيرة باطنية صاخبة اكتملتْ بالموت... هو الذي قال إنّ هناك رجالاً لا يُمْكن قتلُهم إلاّ من الداخل.

❖ ❖ ❖

وهكذا،

هل رأيتِ كيف أنْ لا تفسير نوعيًا لديّ لسبب الرجوع إليكِ، ولا لكلّ هذا الانهمار في هذا الهزيع الأخير من كلّ شيء؟

ربّما لا أدري إنْ كنتُ أبحثُ فعلاً عن سبب حقيقيّ للرجوع إليكِ أو إلى الأصوات الأولى والينابيع الأولى والخيبات الأولى. بل إنّني منذ سنواتٍ صرتُ لا أعلم إنْ كنتِ حقيقيةً مُكتملةً ماثلةً في الواقع.

في هذا الهزيع الأخير من كلّ شيء، لا أعلم إنْ كان صوتي واضحًا لديكِ. فأنا ـ حيث أنا ـ أُرسلُ صوتي المغتسلَ بمياه المتوسط أحرفًا منهكةً وعباراتٍ ساهمة. أُرسلُ صوتي إلى لحظةٍ انقضت، وينبسطُ أمامي صدًى أندلسيّ مألوف. كأنّي تمامًا في قلب ذلك المكان الدائريّ المسيَّج بالصخب، الملوّن بالأحمر الفاقع. هي فقط التفاتةٌ أخيرةٌ إلى الوراء، آخرُ التفاتة قبل أن ينكسر الحديدُ بين الأضلع ويخرَّ الثّور.

تونس